

الشرق بين التقليد والتقاليد

موضوعنا يدور على موقف الشرق بين التقليد والتقاليد .
وظاهر من بنية اللفظ أن التقليد والتقاليد - في اللغة
العربية - كلمتان من مادة واحدة . ولكنها في الاصطلاح المتفق
عليه ، تدلان على معنيين متناقضين أو متقابلين . لأن العمل
بالتقاليد معناه ملازمة القديم والمحافظة على السنن الموروثة ،
والعمل بالتقليد معناه الأخذ بشيء جديد أو محاكاة شيء لم يسبق
الأخذ به في زمن قديم .

وقد سلك الشرق سبيلاً وعرّاً بين المحافظة على التقاليد
والنزوع إلى التقليد ، أو بين التعلق بالموروثات والتعلق
بالمبدعات الحديثة في العصر الأخير .

فالتقاليد في جميع الأمم قوة عظيمة السلطان راسخة الجذور ،
وهي في الشرق ، تزداد سلطاناً بما يضاف إليها من العوامل
الاجتماعية والدينية الكثيرة ، ومن خصائص الأمم الشرقية التي
لا تشاركها فيها جميع الأجناس .

فالشرق - سواء فيه السلالة العربية والسلالات السامية
الأخرى - قريب الصلة بنظام القبيلة وعادات الفخر بالنسب

العريق والتراث الأصيل . ومن دأب هذه العادات أن تغرى أبناء الأمم بالنظر إلى الماضي ودوام التلفت إليه في كل مرحلة من مراحل الانتقال .

واللغة العربية هي لغة الثقافة الشرقية على الإجمال ، وهي لغة القرآن الكريم الذى يحرص المسلمون على كل آية من آياته ، وكل حرف من حروفه . فلا جرم تصطبغ الآداب العربية بصبغة المحافظة وتنفر من التجديد الذى توجس منه خيفة على لغة الكتاب الكريم .

ويضاف إلى ما تقدم أن الشرق فى العصور الوسطى قد جنح إلى الركود بعد التقدم ، واستكان إلى الضعف بعد القوة ، وليس من شأن الضعيف أن يخترع ويبتدع ويقدم على المجهول ، بل هو فى معظم حالاته متهيب لا يجهل ، قليل الحركة فى مجال العلم والعمل على السواء .

ثم ساد الشرق زمناً من الأزمان طغيان العسف والاستبداد ، فسكن إلى التقاليد التى لا تحوجه إلى رأى ولا اجتهاد، وأخطأ فى فهمها برهة طويلة كما يخطئ كل جاهل ضعيف مسلوب العزم والمشئمة .

وطالت برهة التقاليد على الشرق حتى أحس على الرغم منه بضرورة التقليد ، أى ضرورة الأخذ بالجديد .

أحس بذلك حين اصطدم بقوة الحضارة الغربية الحديثة ولمس

مكان التفوق والرجحان من أبنائها .
ولم يزل شأن المغلوب أن يولع بمحاكاة الغالب كما قال ابن
خلدون . ولا سيما المحاكاة التي لا تكلفه جهد التصرف الكثير ،
ولا تتجاوز حدود النقل والاقتباس اليسير .
وقد تأتى هذه المحاكاة على درجات في اليسر وسهولة المأخذ ،
وهى على هذا الترتيب : محاكاة الأزياء والنظم الرسمية ، ثم
محاكاة المعيشة الاجتماعية ، ثم محاكاة العلوم والصناعات
والأعمال العامة ، ثم آخرها وأصعبها وهو المحاكاة فى الرأى
والشعور والنظر إلى حقائق الأشياء .
فمضى الشرقيون شوطاً بعيداً فى محاكاة الأزياء والنظم
الاجتماعية ودراسة العلوم والصناعات ، وهم لا يزالون فى أسر
التقاليد .

بل كان من أثر هذا التجديد فى الأشكال والمراسم أنه رجع
بهم رجعة شديدة إلى التقاليد الموروثة فى بعض الأحوال ، لأنهم
تخوفوا منه الخطر على كيانهم القومى فأجفلوا منه معتصمين
بماضيهم المجيد الذى لا يكفون عن الحنين إليه . وكان من جراء
هذا الاضطراب الشديد بين الماضى والحاضر أن ظهر فيهم
الجامدون المفرطون فى الجمود والمتطرفون الغالون فى التجديد .
وليس فى استطاعة الجامد المتشبت أن يعمل عملاً نافعا فى عصر
الحركة والتقدم ، ولا فى استطاعة المتطرف أن يلغى الحدود ويحطم

القيود ويتغلب على الواقع المعزز بتراث المئات بل الألوف من السنين . فانفتح الطريق بين الفريقين المتناقضين لفريق ثالث هو أقدر على العمل وأقرب إلى الإنجاز ، لأنه ينظر إلى حقيقة الماضي ولا يستخف بها وينظر إلى حقيقة الحاضر ولا يغفل عنها . وذلك هو فريق الموفقين بين الأخذ بالجديد والمحافظة على التقاليد .

وامتزجت حركة هؤلاء الموفقين بالدين في كل مكان وفي كل شعبة من شعب التفكير ، ولكنها مع هذا لم تخل من الصبغة القومية في كل بيئة شرقية على حسب مزاجها الموروث . ففي الهند ظهر غلام أحمد القادياني ، ومذهبه شبيه بمزاج البلاد التي نشأت فيها عقيدة تقمص الأرواح وانتقال الروح من جثمان إلى جثمان .

وفي إيران ظهر مرزا علي محمد الشيرازي ، ومذهبه شبيه بمزاج البلاد التي نشأت فيها الباطنية وآمن فيها الناس من قديم الزمن بعقيدة الحلول وانتظار الإمام الذي يطهر الدنيا من الرجس والشر حيناً بعد حين .

وفي البلاد العربية ظهرت الدعوة الوهابية ومذهبها شبيه بمزاج البلاد التي ألفت خشونة العيش وأنكرت الرموز والإشارات وتعلم أبناؤها كراهة الألفاظ والمعميات في وضوح الصحراء .

وفي مصر ظهرت دعوة الإمام محمد عبده ومريديه ، ومذهبهم شبيه بمزاج البلاد التي تفسر القوانين الإلهية والنصوص الشرعية كما تفسر أوامر الحكومات ، أو هو مزاج مصر التي جاءها بالنبوة فرعونها إخناتون . وتقابلت فيها شريعة الأرض وشريعة السماء .

وقد كان هذا الامتزاج بين طبائع الأمم وطبائع الحركات الإصلاحية أدل دليل على ديب الحياة فيها ، وأن أرواح الشعوب قد نهضت للحركة والتقدم في سبيل الاستقلال بالرأى والشعور ، ولولا أنها حركات حية طبيعية لما تنبعت فيها أرواح الشعوب والأجناس على هذه الوتيرة ، ولكانت تقليدًا متشابهًا لا تصرف فيه .

وأعان الشرقيين على الاستقلال بالرأى والشعور أن الحضارة الغربية نفسها قد أحست بعيوبها وأكثرت من نقدها واستنهاض القرائح والنفوس إلى إصلاحها ، وأنها قد تشعبت أمام أبنائها وأبناء الأمم الأخرى شعبًا متفرقة في الأدب والفن وأساليب الاجتماع . فعلم الشرقيون أن الحضارة الأوربية إذن ليست وحيا من السماء ولا ضربًا من التنزيل . وأنها لا تؤخذ بنصها جملة واحدة أو تنبذ بنصها جملة واحدة ، ولا خير من تنقيحها وتعديلها على حسب الأقاليم والبيئات .

وهكذا ابتدأ دور الاستقلال بعد دور الفتنة بالقديم ودور الفتنة

بالجديد ، ومضى الشرق شوطاً غير قصير في هذا الدور المبشر
بالخير والارتقاء .

قلنا في مفتتح المؤتمر اللغوى بالقاهرة عن الاتجاهات الحديثة
في الأدب العربى : « إننا نعبر الآن فترة البداية في الاستقلال
والثقة بالنفس ، وإن هذا الاستقلال يتجلى حيناً في التحرر من
القديم ويتجلى حيناً آخر في التحرر من الجديد . فقد مضى زمان
كان يكفى فيه أن يكون الشيء قديماً ليحكى بلا تصرف
ولا مراجعة ، ومضى بعده زمان كان يكفى فيه أن يكون الشيء
أوربياً أو حديثاً ليحكى بلا تصرف ولا مراجعة ... ومن الناس
اليوم من يوصف بالابتكار لأنه يستمسك بقديم كان وقفاً على
الجامدين ، ومنهم من يوصف بالجمود والمحاكاة لأنه يعجل إلى
الجديد على سنة التقليد .. » .

هذا الاستقلال هو ميزان الاعتدال بين التقليد والتقاليد ،
وبين دعوة الموروثات ودعوة الخلق والابتداع .

فلا القديم كله نافع ولا البدع الجديدة كلها نافعة ، ولكن
النفع كل النفع فى الحس الصادق والرأى الجرىء والعزيمة
البصيرة ، لأنها تستبقى ما هو جدير بالبقاء من القديم والجديد
على السواء .

وإذا احتفظ الشرق بملكة الاستقلال فى الحس والرأى
فلا حاجة به إذن إلى الثورة على تقاليده الغالبة من أى نوع

كانت ، سواء منها تقاليد العقيدة وتقاليد الفنون والآداب .
لأن تقاليد العقيدة ليست من قبيل الدراسات العلمية التي
تعرض على العمل والمسبار فترة بعد فترة . وإنما هي ذخيرة
شعورية تعمر الضمير فتعينه على مراس الحياة وتلهمه حسن
المعاملة ومكارم الأخلاق . وعند الشرق في هذه الذخيرة
الشعورية ما يصلح للحياة العصرية ويقبل الحقائق العلمية .
ولعله عصمة له من بعض مذاهب الماديين التي تقوض دعائم
الآداب الإنسانية جميعاً باسم العلم وهي براء من العلم والعلم
منها براء .

فلا حاجة بالشرق إلى الثورة على عقائده الصالحة التي
خلصت من شوائب عصر الجمود وتهيات للتوفيق بينها وبين
حقائق الحياة في العصر الحديث ، وليس التجرد من هذه العقائد
بخير له من المحافظة عليها والتبصر فيها ، لأنه لن يستغنى عن
الذخيرة الشعورية بحال من الأحوال ، ولن يخلقها من جديد إذا
هو استغنى عنها في نزوة من نزوات الجموح والضلال .

أما تقاليد الشرق في عالم الآداب والفنون فكل ما عارض
منها ملكة الاستقلال في الحس والرأى فهو ذاهب لا محالة .. بل
هو قد عبر نصف الطريق في الذهاب إلى غير رجعة ، وما بقى
من تقاليده موافقاً لاستقلاله في حسه ورأيه فهو زينة الفن وحلية
الأدب . لأن ثمرات القرائح والأذهان إنما تجمل بالتنوع بين

- الشعوب والعصور ولا تفتأ كثرات الربيع وازدهاره : أجل ما تكون إذا غنيت في رياضها وعلى أشجارها بتعدد الألوان والأشكال ، وتنوع النسمات والعطور .

وأياً كانت عثرات الشرق في سبيل الاستقلال بالحس والرأى فهي خير من سهولة مقادة للتقليد أو سهولة مقادة للتقاليد . لأن الرجل الذى يهتدى بقيادة السلف أو الخلف إنما يهتدى بعينى غيره وأذنيه . وخير له أن ينظر بعينى رأسه ويسمع بأذنيه ثم يتعثر ما شاء حتى يأنس العثار . لأن العثار ثمن غير كثير على نعمة السمع والبصر ، أو على نعمة الاستقلال بالحياة ، ولن يكون الشرق المستقل إلا خيراً من الشرق الذى قضى ردحاً من الدهر بين التقليد والتقاليد .